الفصل الخامس

طه حسين.. ودار المعارف

د. طه حسين

ليس هناك من أبناء جيلى، ومن الأجيال السابقة، من لا يذكر طبعات كتب الدكتور طه حسين بأغلفتها التى تتصدرها صورته الشهيرة بنظارته السوداء ووضعية يده أسفل ذقنه، تلك الصورة التى انطبعت فى أذهاننا منذ تفتحت أعيننا على روائع طه حسين، وأعماله العظيمة فى الأدب والفكر والإسلاميات والدراسات الأدبية واللغوية والتاريخية.. إلخ.

وليس هناك من له أدنى صلة بالقراءة أو اتصل بالثقافة بسبب، لم يقرأ كتابا واحدًا على الأقل لطه حسين، أو اقتنى فى مكتبته واحدًا من كتبه فى طبعتها الأصلية المدققة المشهورة عن دار المعارف التى احتضنت طه حسين، وَزَهت به، وحرصت كل الحرص على اتصاله بها ونشر كتبه منذ ثلاثينيات القرن الماضى وحتى وفاته فى أكتوبر سنة ١٩٧٣م، ولعل مكتبة الأعمال الكاملة لطه حسين التى اضطلعت دار المعارف بنشرها وتوفيرها لعموم القراء لأكثر من نصف القرن، كانت وما زالت هى الأهم والأقيم والأجدر بالانتقاء من بين كل الطبعات التى صدرت لكتب طه حسين (شرعية كانت وما أقلها، أو مزورة وما أكثرها خاصة فى بيروت).

وحكاية عميد الأدب العربى، الدكتور طه حسين، الرجل الذى أحضر لنا الشمس والنور مع أنه عاش حياته كلها فى الظلام، مع دار المعارف، حكاية فريدة، غنية، وافرة المتعة والفائدة والتاريخ. وليس من المصادفات العابرة، أن حلت الذكرى الثانية والأربعين لرحيل عميد الأدب العربى، الدكتور طه حسين (١٨٨٩م ـ ١٩٧٣م) فى الثامن والعشرين من أكتوبر ٢٠١٥م، وذلك بالتزامن مع الاحتفال بمرور ١٢٥ عاما على إنشاء الصرح الأكبر فى تاريخ النشر العربى الحديث، دار المعارف التى اقترن اسمها بطه حسين، واقترن اسمه بها منذ أن انضم فى ثلاثينيات القرن الماضى إلى كتيبة الأعلام الذين تنشر لهم الدار (وقد كان على رأسهم)، وحتى الآن.

كان الدكتور طه حسين يحب دار المعارف، ويثق فيها ويكثر من زيارتها فى مختلف المناسبات (وما أكثرها فى ذلك الزمن الزاهر) ويعرض على القائمين عليها اقتراحاته وآراءه فى نشر الثقافة، وإن كثيرًا من المجموعات والسلاسل التى لا تزال الدار تقوم على نشرها حتى اليوم هى من ثمار آرائه السديدة ورعايته ومتابعته لها ومشاركته فيها أيضا.

بدأت علاقة طه حسين المباشرة بدار المعارف ذات يوم من أيام عام ١٩٣٠م، عندما اصطحب عميد الأثريين المصريين وشيخهم سليم حسن العميد طه حسين إلى مكتب شفيق نجيب مترى صاحب دار المعارف ومديرها، كى يعرض عليه طبع كتابه «قادة الفكر»، ومن حينها لم تنقطع علاقة طه حسين بدار المعارف حتى توفاه الله فى سنة ١٩٧٣م. لكن علاقة طه حسين بمطبعة المعارف ومكتبتها تعود إلى ما قبل ذلك بقليل؛ إذ كان

طه حسين وقتها فى كامل عنفوانه الفكرى ولياقته العقلية والذهنية وحضوره الطاغى، وكانت آثار معركة كتابه «الشعر الجاهلى» لم تنقشع بعد، وما زال فى الأجواء بعضٌ من غبارها ودخانها.

ما أشد ما وقع فى قلبى من الحزن حين خطها القلم على الورق لأول مرة الفقيد لا العميد! وإن لم يكن القلم قد تعثر فخط هذه مرة فالتاريخ سيظل يردد عميد الأدب العربى فتعرفه الأجيال ما شاء الله من دهور.

لم تبق الأيام الطوال على كثير مما قيل فى ذلك اليوم العزيز على من أيام حياتى ولكنها محاولة أضع بها بين يدى هذا الجيل لمحات مما خلفه هذا اللقاء فى نفسى من أثر.

قال الدكتور سليم حسن ما معناه: إن الكاتب يكتب فيحسن ويجيد، ثم يدفع بكتابه إلى دار النشر أو الطباعة فيصدر عنها فى ثوب قد يكون قشيبا يدفع القارئ إلى الحفاوة بما يقرأ، وقد يكون هذا الثوب زريا فيجعله يعرض عن هذا الكتاب إعراضا.

فعقب حضرة عميد الأدب العربى بما معناه:

وقد جئناك اليوم بكتابى قادة الفكر ليصدر عند دارك فى هذا الثوب القشيب. فماذا أنت فاعل به؟ إذا احتفى القراء به وبمن كتبه فأنت شريك فى الفضل، وإن أعرضوا.. ولن أزيد.

ومهما أكن قد أنسيت من الألفاظ والعبارات فإننى لن أنسى وقع هذا المعنى من نفسى.

وظهر كتاب «قادة الفكر» فى ثوبٍ عدَّه الدكتور العميد

قشيبًا.. وتحول المؤلف الكبير صديقا كبيرا، يفسح من قلبه الكبير مكانا عزيزا لشخصى ولدار المعارف، ويفسح لى من وقته الغالى ما أفضى له فيه بما يتردَد فى نفسى من خواطر وأفكار.

ومن أيام دار المعارف المشهودة مع الدكتور العميد يوم الاحتفال بعيدها الذهبى (مرور خمسين عاما على تأسيسها) عام ١٩٤١م وكان قد صدر عن الدار طبعة محققة فاخرة من كتاب «كليلة ودمنة» وثق مصادرها وحقق نصها الدكتور عبد الوهاب عزام، وقدمها إلى القراء الدكتور طه حسين تقديما هو دراسة قيمة تقرأ لذاتها.

وكان شفيق مترى صاحب مطبعة المعارف المصرية ومكتبتها (دار المعارف)، قد نظم حفلا باهرا فى منتصف العام ١٩٤١م، بمناسبة العيد الذهبى لتأسيس المطبعة، دعا إليه لفيفا من الوزراء والأدباء والمفكرين. وكان فى استقبالهم كل من أنطون الجميل ومحمد خالد حسين، ويوسف مشاقة مدير الدار. وتحدث فى الحفل مجموعة كبيرة من المفكرين والسياسيين، ومنهم: د.طه حسين، ومحمد خليل بك، وعبد العزيز البشرى، وعبد الله عفيفى بك، ومحمد أحمد جاد المولى، وحلمى عيسى باشا وزير المعارف، والدكتور على إبراهيم وزير الصحة، وفوزان السابق مندوب الوزير السعودى المفوض فى مصر، وإسماعيل تيمور بك، ومحمد توفيق رفعت رئيس المجمع اللغوى، وزكى العرابى باشا، وجعفر والى باشا، ومحمد صفوت باشا.. وآخرون.

وبهذه المناسبة ألقى حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين خطابا قال فيه:

"فقد كان عهدى بالكتب التى ننشرها فى مصر أنها تكلفنا ما تكلفنا من العناء فى تأليفها وإذاعتها، ثم لا نجنى منها شيئا، أو لا نكاد نجنى منها شيئا، وربما كلفتنا إلى العناء العقلى أثقالا مالية لم نكن نقدر على احتمالها فى كثير من الأحيان. فلما اتصلت بمطبعة المعارف ومكتبتها تغير هذا كله تغيرا تاما. ومن المحقق أن المرتب الذى كنت أتقاضاه من الجامعة لم يكن من شأنه أن يمكننى من الرحلة إلى أوربا فى كل عام هناك حيث كنت أفرغ للراحة أولا، ثم للدرس والإنتاج بعد ذلك. فأنا مدين بالرحلة المنظمة إلى أوربا، وبما أتاحت لى هذه الرحلة من راحة وإنتاج لمطبعة المعارف ومكتبتها".

وعن هذه المناسبة وما تخللها من كلمات، وخاصة كلمة طه حسين، يقول شفيق مترى:

"وألقى رحمه الله فى ذاك اليوم كلمة أرسى فيها قواعد رسالة النشر والناشرين. ومن أيامه معى يوم طرحت فيه أمامه فكرة سلسلة من الكتيبات تصدر كل شهر، زهيدة الثمن رفيعة المستوى مؤلفة غير مترجمة بأقلام كتاب من كل طرف من أطراف الوطن العربى يقرأها العرب فى كل رجا من أرجاء الوطن العربى. كان ذلك فى يوم من أيام عام ١٩٤٢م، فانطلق، رحمه الله، بما معناه: إنَ العرب الذين نراهم اليوم منقسمين، ونرى أهواءهم شتَى، لن يجمع كلمتهم- يوم تجتمع- إلا نسيجَ فكرى متجانس، تنسج خيوطه أقلام كتّابهم جميعًا، فيشترك فى قراءة آثار أقلامهم قراء العربية قاطبة.. بمثل هذا ستجتمع كلمتهم يوما بفضل الله.

أصدر سلسلتك يا شفيق، وسمها «اقرأ»..

وقد أتحفها بكتابه الأول «أحلام شهر زاد» فكان فاتحة الخير العميم والبركة الشاملة..

ومما يرويه الأستاذ سامى الكيالى، وهو واحد من أنجب تلاميذ العميد ومريديه، أنه بعد عامين من صدور سلسلة (اقرأ) نظمت دار المعارف مسابقة عن أحسن كتاب صدر فى السلسلة فى خلال العامين، فنال كتاب «أحلام شهر زاد» للدكتور طه حسين الجائزة الأولى، لكن طه حسين طلب استبعاد كتابه من المسابقة، ففاز بها كتاب «سيدة القصور» للأستاذ على الجارم وكتاب «جحا فى جانبولاد» للأستاذ محمد فريد أبو حديد، وكانت لجنة التحكيم تتكون من: عباس محمود العقاد، أنطون الجميل، يوسف مشاقة، شفيق نجيب مترى، عادل الغضبان، وفؤاد صروف..

وطوال ثلاثة وأربعين عاما متصلة، نشر طه حسين الطبعات الأولى من أعماله فى دار المعارف، وأعاد نشر ما لم ينشر فيها مرات

ومرات، وارتبط اسم الدكتور العميد بكل مناسبة عزيزة ونشاط مبدع لدار المعارف، وكان أحد أركانها الركينة فى إبداعاتها المبتكرة وسلاسلها المخترعة، يذهب إليه شفيق مترى بالفكرة تجول بخاطره، فيؤيده ويدعمه ويكون على رأس المشجعين بل المشاركين بفاعلية وحيوية فى هذا المشروع أو ذلك النشاط.

كتبوا عن طه حسين فى دار المعارف

وليست مؤلفات العميد وحدها هى التى يطلبها جمهرة القراء ومحبو أدب طه حسين، وليست كتبه وحدها التى اعتنت بها دار

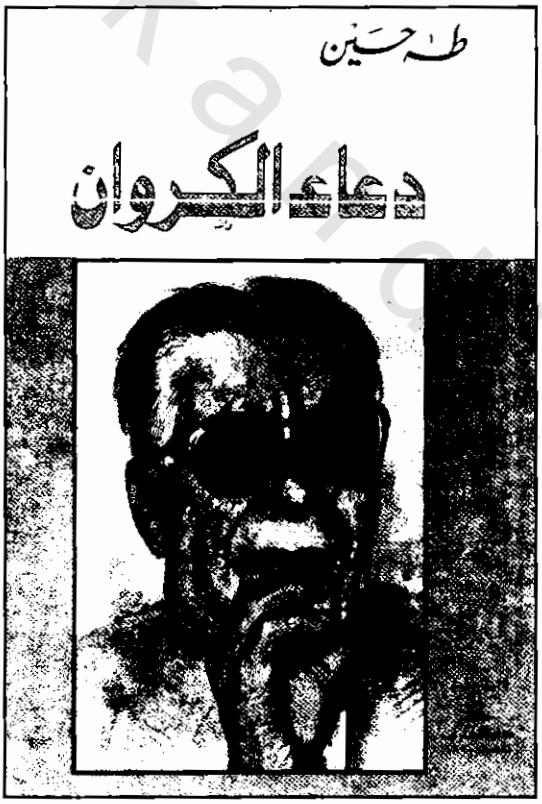

المعارف وازدانت مطابعها ومكتباتها وقوائم إصداراتها بعناوينها، بل أيضا أهم الكتب التى صدرت عن طه حسين فى حياته، وعقب مماته، صدرت عن دار المعارف، وهى كلها من نفائس الكتب ونوادر المؤلفات، خصوصا منها ما اقترب من حياة العميد من واقع صداقة قريبة أو تلمذة علمية أو اتصال بدوائر الأدب والفكر التى كانت تستضيف العميد وتفيد من علمه وبصيرته.

مؤلفات طه حسين التى أصدرتها دار المعارف

أهم كتب طه حسين وأشهرها وأبقاها خرجت فى دار المعارف، وعن دار المعارف، وتعددت طبعاتها بالعشرات، ووزعت نسخها بمئات الآلاف فى مصر وخارجها، سيرته العظيمة التى فتحت بابا جديدا فى فن السيرة الذاتية «الأيام»، وفى الأدب القصصى والروائى تعزف القراء أول ما تعرفوا على «دعاء الكروان» و«أديب» و«المعذبون فى الأرض» و«الحب الضائع» و«شجرة البؤس» و«رحلة الربيع» فى طبعات دار المعارف.

كتاباته الجليلة فى الأدب والنقد، لم يعرف دارسو الأدب والنقد طبعات موثقة ومدققة منها غير طبعات دار المعارف، ويأتى على رأسها «فى الأدب الجاهلى»، و«فصول فى الأدب والنقد» وكتابه الخالد «حديث الأربعاء» بأجزائه الثلاثة كاملة، وكان الجزء الأول (وهو أشهرها وأذيعها) دراسة فاتنة وبديعة استهل بها طه حسين محاولته الفذة فى اختراق غابات الشعر الجاهلى ممسكا بيد قارئه، هاديا ومرشدا ودليلا؛ للتعرف على روح الثقافة العربية فى العصر الجاهلى، وتمثيله جماليا من خلال فن العربية الأول "الشعر". وكان طه حسين فى هذا الكتاب رائدا لأرض غير مطروقة، ووجه أنظار النقاد ودارسى الشعر القديم ومتخصصيه إلى ضرورة التوسط بين المقبلين على قراءة ودرس الشعر القديم بتشابكاته اللغوية والجمالية والفنية وبين النصوص ذاتها. فتح طه حسين الباب

واسعا، لقراءة وتحليل الشعر العربى وتذوقه فى عصور ازدهاره، وفى الجزئين الثانى والثالث من «حديث الأربعاء» سار طه حسين على ذات النهج فى درسه للحياة الأدبية والاجتماعية فى عصر الدولتين الأموية والعباسية، ولأول مرة فى تاريخ الدراسة الأدبية يتعرض العميد لشعراء الدعابة والمجون واللهو ليكشف عن جوانب مثيرة من الحياة الأدبية والاجتماعية، ومن خلالها ينطلق لتصوير معركة القيم والحديث فى أدبنا المعاصر.

وهناك العديد من الكتب التى نشرتها دار المعارف لرائدنا الكبير تعد "محطات" فى تاريخ الثقافة المصرية منها مثلا على هامش السيرة ، ومستقبل الثقافة، والفتنة الكبرى..